د. شكري فيصل

مشكلة اللغة العربية في الادب المعاصر

هل هنالك حقا هذه المشكلة التي يشير اليها هـذا العنوان المقترح ؟ اين تقوم هذه الاشكالية وما هي ابعادها؟ ومن هم الذين يعانون منها وكيف يعانونها ؟ وما المدلولات البعيدة للاصوات التي ترتفع بها ؟ هل بلغ ما بين اللغة العربية والادب المعاصر حد الازمة او حد المشكلة التـي تستحق ان تطرح ، وان تطرح على هذا المستوى مـن المشاركين في مؤتمر الادباء العرب وعلى هذا الصعيد من مشاكل الادب العربي وفي نطاق القضايا المعقدة التي تفرد بالبحث ، وتعقد لها المؤتمرات ؟

كانت هذه الامثلة ، ونحو منهـا ، يغزوني ، وكان صداها يلح علي في اعماقي.. وظللت اياما اديرها واداورها كلمـا خلوت الى نفسي وكلمـا فكرت في المؤتمر دون ان اهتدي من ذلك الى شيء واضح ذي بال .

ذلك ان العلاقة بين اللغة العربية من نحو وبين الادب العربي من نحو آخر لم تكن في مرة من المرات ، على طول التاريخ الادبي ، وعلى طول التاريخ العربي ـ وكلاهما من الامتداد بحيث تجهل بداياته الاولى وكلاهما مما يستغرق القرون الطويلة ـ موضع ازمة ولم تكن في موضع الاشكال.

كانت اللغة العربية تمد الاديب العربي بكل امكاناتها وخصائصها ، وكانت تضع بين يديه هذا الكنز الهائـل يستمد منه ويطوعه لمشاعره ومطامحه ، واهدافه وتطلعاته، يعبر به عن عقله كما يعبر به عن قلبه .. كانت لغته قادرة على ان تسعفه بكل ما يريده اذا كان ارادة ، وبكل مـا يهمس به اذا كان نجوى ، وبكل ما يبين عنه اذا كان فكرة نبتت أو رأيا استوى ..

وكان الاديب العربي كذلك في كـل ما يملأ فكره او وجدانه وفي كل ما تنضجه احداثه وتجاربه قادرا على ان يفيد من هذه اللغة ، قادرا على تطويعها.. وكان في لحظات توهجه وابداعه قادرا على ان يمنح الفاظها ألقا جديدا وان يرسم حول هذه الالفاظ هالات مضيئة ، وكان كذلـك قادرا على ان يضيف الى رصيدها من التراكيب والصور والمجازات تراكيب وصورا ومجازات مما يفيض به خاطره، او يتفتح عنه وجدانه او يخلفه عنده هذا التفاعل السحري العجيب بين الحدث الخارجي والذات المنفعلة واللغـة المبينة .

ولعله لم يستو لادب من آداب الامم الاخرى مثـل الذي استوى للادب العربي في هذا الامتـداد الطويل في الزمان والامتداد العريض في المكان ومثل هذا التنـوع والغنى على ألسنة آلاف من الكتاب والادباء والشعراء واصحاب البيان والتبيين.. وهو تنوع تناول من الاغراض ما لا يحصى ، ومن الاحداث ما لا يحـد ، ومن الوقائـع والرؤى والاحلام والمطامح ما لا يكاد يجتمع في ادب مـن آداب امم الارض على الاطلاق دون اي تهيب لهذا الحكم العريض والتصميم الواسع .

وفي كل ذلك ، في كل هذا التاريخ الادبي والتاريخ اللغوي لم نجد اشارة ما ، لا الاشارة القريبة ولا الاشارة البعيدة ـ الى ان احدا من هذه الالاف والملايين من الذين تحدثوا عن ذواتهم ومن الذين تحدثوا عن مجتمعهم ، من الذين كان ينبع حديثهم من القلب والذين كان ينبع حديثهم من العقل، من الذين طرقوا هذا الضرب من ضروب الدراسات العلمية او الدراسات الانسانية، من الذين كانوا في اول دهر العربية الذي نعرفه حتى هذا العهد الذي عرفنا ـ لم نجد عند كل هؤلاء، عربا كانوا اصلاء او اظلتهم العربية، عند الذين سمعوا عربيتهم من مناغـاة امهاتهم او تعلموهـا في المساجـد والاسواق .. عند كل هؤلاء لم نجد من كان يشكو لغته العربية او كان يحس ، حين يعالج انتاجـه الادبي ، ان بينه وبينها شيئا من تأزم او شيئا من تعقيد ... كانت هي ـ حين تكتمل لهم معرفتهم او حين كانت تستوي لهم تجاربهم ـ تنثال على لسانهم . وكانوا هم حين تتفجر

عندهم لحظات التعبير ـ فكرية او شعورية ـ يتمكنون منها ويجدون القدرة على التفاعل معها تفاعلا يبلغ حد الفناء فيها حتى يتولد عن هذا الفناء ولادة النص الجديد او الاثر الجديد .

بل اننا نجد اذ نتتبع اعترافات بعض العلماء والادباء حين تتاح لهم فرصة هذه الاعترافات في الفترات التي بدأ فيها اول شرخ في بناء الحياة العربية ـ اريد في الفترات التي بدأت فيها ثنائية اللغة بين الاقدام التي أظلها الاسلام ـ من كان اذا ادركته خاطرة مقارنة بين العربية وبين اللغات الاخرى بادر الى تفضيل العربية ، لا يتوقف ولا يتردد . وحسبنا من ذلك ما نذكره من نص البيروني حين اقترن ما بينه وبين العربية وما بينه وبين لغات اخرى فمضى يرفع صوته بتمجيد العربية على كل ما عداها .

ولعل من الخير ان نتجاوز مثل هذا الحديث عن التفاضل بين اللغات فما الى شيء من ذلك اردت ، وانما اردت ان اقول انه على تنوع الازمنة والامكنة والاقاليم والشعوب في حياة الادب العربي وعلى تنوع الموضوعات والاغراض ، وعلى التعدد الذي لا يتناهى في الظروف النفسية والاجتماعية ـ لم يكن بين العربية وبين الادب العربي الا هذا التفاعل المتكامل الذي كان يتيح للاديب العربي ان ينتج أدبه بانسجام ما بينه وبين لغته : لغته تغذيه ، وادبه الرفيع يتيح لهذه اللغة الثراء والنماء .

ـ ٢ ـ

واذن فمن اين يجيء هذا الحديث في هذه العقود الاخيرة عن شيء اسمه « المشكلة بين اللغة العربية وبين الادب المعاصر ؟ .. ومن هم هؤلاء « الادباء » الذين تحدثوا عن ذلك او أثاروه ؟ .. هل هي مشكلة اللغة العربية ام هي مشكلة اولئك الذين يستخدمون اللغة ؟ هل يتحدثون عن انتاج الادب في لغة ما ام يتحدثون عن تعلم اللغة التي يكون بها انتاج هذا الادب ؟..

اذا عدنا الى الوراء ـ في معالجة نظرية لهذه الصلة بين اللغة وبين الذين يستخدمون اللغة في شكل من اشكال التعبير : التعبير اليومي او التعبير الادبي ـ فاننا لا نستطيع ان نتصور قيام المشكلة .. لانه حين تكتمل للمرء ظروف التعبير : فان هذا التعبير لا بد ان ينبجس على شكل لغوي ما ... ثم تتفاوت مستويات هذا الشكل اللغوي تبعا لقدرته على استعمال لغته كما تتفاوت كذلك تبعا لعوامل اخرى منها الثقافة ، ومنها نضج التجربة .. ولكن يبقى دائما ان اللغة تنصاع للذي يستعملها بمقدار ما يستطيع هو ان يطوعها لهذا الانصياع

ومن المؤكد ان اللغة تغطي من رغبتنا في التعبير وتطلعنا نحو انشاء النص الادبي او ابداعه بقدر ما يكون من اكتمال الظروف المختلفة التي تحيط بهذا التعبير .. وفي ذلك لا بد ان نلاحظ الظروف النفسية والظروف الاجتماعية والظروف الثقافية :

آ ـ في الظروف النفسية مثلا حين لا تستوي التجربة فانه لا بد ان يتمثل ذلك منعكسا في صور الاداء .. أي انه لا بد ان يكون هناك هذا التماثل بين درجة نضج التجربة ودرجة القدرة على استخدام اللغة في التعبير .. فاذا جئت اتحدث عن تجربة عارضة ، او مبشرة او مزيفة فان الاداء اللغوي ـ او لنقل الاداء الفني الذي تحمله اللغة بألفاظها وتراكيبها ونظمها ـ يأتي وفيه من القصور بقدر ما كان من قصور في التجربة.. ان الالم الممض الذي يأكلني حين ارى الوطن المستباح او المواطن المستباح لا يمكن ان تقصر اللغة في التعبير عنه اذا اتيح لي من الزاد الثقافي ومن الظروف الاجتماعية ما يكفي لهذا التعبير .. ان اللغة هنا لا تؤلف أية اشكالية ولا تكون أي عائق .

ولادع لنفسي حرية ضرب المثل من خلال الممارسة الذاتيـة .

حين زرت القاهرة بعد انقطاع مضيت الى ميدان التحرير انشد صديقا غاليا .. كان لـي كأخ في بعض ساعات من حياتي .. كان هذا الصديق يكبرني في كل شيء . كان له من العقود ما ليس لي وكان له من الشهرة والذيوع ما لا اعرف .. ولكنه كان يفتح عيني على جديد لا عهد لي به كلما زرته ، على ضعف ما كان من قدرتي على زيارته ، او كلما طوفت حوله .. كان يشبه البناء الكبير الذي يظلك حينا من بعيد او يتيح لك ان تحتمي بظلاله في بعض الاحايين .. بل لماذا لا اقول انه كان بناء .. كان احجارا وغرفا ولكنه كان بناء تترقرق فيه الروح وكانت احجاره وغرفه قادرة على ان تعي وتحفظ وتتكلم ، وكنت احيانا اسمع هذا الكلام .. لقد اقامت صلتي به ـ وهي صلة لم تتجاوز في جملة عمرها الساعات المعدودات ـ هذا الجسر الروحي بيني وبينه : وهبني من ظلالـه وقامت بيننا هذه الاستجابات .

هذا الصديق كان « فندق سميراميس » . ما كان لي في حياتي الاولى في القاهرة أن اعرفه من داخله.. عرفته مما حوله . وكان يطيب لي ان اقف عنده او قريبا منه اذ كان هنالك هذه المقاعد الحجرية في أفياء اشجار ضخمة تمكن لي ان اتأمل شيئين : احدهما تمثال سعد زغلول والاخر هذا النيل الهادىء الذي تلامسك منه ، وانت تخطو فوق الجسر ، نسيماته وامواجه .. امواجه تستحيل الى نسيمات ، ونسيماته تخلق هذه الموجات ... وبين مشاعر المقاومة والحرية التي كانت تتمثل لنا في سيرة سعد ، ومشاعر الجمال التي كانت تتمثل في حلاوة الطبيعة التي كانت تعوضنا عن كل فقر عرفت سميراميس من بعد قريب ، ولمحت اولئك الذين كانوا يدخلون فيه ويخرجون منه ، في رشاقة الصبا ، وتمهل الكهولة وبطء الشيخوخة،في لهفة المقبلين ووداع المسافرين

فلما كانت مرحلة اخرى بعد ذلك من حياتي في

القاهرة دخلت هذا الفندق .. شربت فيه الشاي مرة ، واكلت فيه مرة .. وتحية لصديقي اللذين اباحا لي ذلك آنذاك ـ وانا لا ازال في سن الطلب ـ على وجلي الاجتماعي وحيائي الغالب .. ثم قدر لي بعد ان انزله مرة وحدي ومرة مع زوجي وبعض ولدي .

واجوز التفاصيل لاقول انه انعقد ما بيني وبين سميراميس .. فلما جئت هذه المرة الاخيرة انشده راعني اني لم اجد هذا الشيخ الجليل الثري الذي احاط الالاف والملايين بالمباهج .. لم اجد هؤلاء الذين كانوا يقفون كالنخلة السمراء بحزنهم الاحمر يسعون في الابهاء ويتحدثون حديثا اقرب الى الايماء في ادب ، ويلقون اليك برؤوسهم يسألونك ماذا تريد وكأنهم يلقون اليك بقلوبهم .. لم اجد اولئك الذين كانوا يتحلقون هنا وهناك في بهو الفندق ، ولم اجد صالة عريضة كانت تغص بالورود .. لم اشهد اولئك الذين كانوا يهمسون بالحديث ، او كانوا يرفعون به الصوت .. لا شيء الان من هذه الجلبة : جلبة الوصول الى الفندق او جلبة مغادرته .. لم اجد شيئا لا بناء ، لا شرفات ظلت ترقب النيل وتختزن عنده الاسرار التي وراءها ، ولا نوافذ كانت تحمل نظرات الاشقياء او السعداء .. حتى الارض لم اجدها .. فقد احتفروا فيها ليقيموا اساس البناء الجديد .

كان هذا المشهد مثيرا لي .. ومن المؤكد انه كان يكون مجالا لكلام ما اقوله ، بحكم هذا الانفعال وبحكم هذه الصلات النفسية ، بوحي الذكريات وبحكم الواقع وبهذا الالق الذي ينبعث من صدام ما بين الذكريات والواقع .

ولكن ذلك لم يكتمل لي .. لان هذه التجربة لم تكتمل لها كل عناصرها التي تقودها ، من مرحلة القوة الى مرحلة الفعل .. ذلك اني كنت في ذات الواقع الذي اعاني فيه هذه الاحاسيس والانفعالات مشغولا عنها او عن التعبير عنها .. كان وراء ذلك ، في عقلي وقلبي معا ، اني اصل الى القاهرة لعمل علمي اشرف عليه ، وكانت تفاصيل كثيرة من هذا العمل وذكريات عن موضوعه « استاذنا المرحوم محمد البزم » وعن شعره وعن صوته العربي المتفرد تأخذ علي طريقي فلا تخلص لي نفسي ولا يصفو لي الحديث عنها .

الامر هنا اذن في انبجاس الاداء الفني ، في ولادة الاثر الادبي ، متصل بأطراف من اطراف الظروف النفسية التي لم تكتمل ، او التي اكتملت ثم زاحمتها ظروف اخرى غالبتها فباعدت بينها وبين الانبجاس ..

ب ـ ومثل الظروف الاجتماعية في ذلك مثل الظروف النفسية .. ان التعبير لا يكتمل لنا احيانا حتى بعد نضجه النفسي ومواتاة الظروف الخارجية ، لان المجتمع من حولنا لا يساعدنا على ذلك او لا يتيحه لنا او يقف عائقا دوننا ..

وهل احتاج ان اضرب الامثال ؟

اننا في كل وطننا العربي الان لا نملك ان نقول ما نريده خوفا او حذرا من سوء الظن ، بل قد يبلغ الحد ان نقول ما لا نريد ان نقوله نفاقا ... اننا نعاني ذلك جميعا في أي صف كنا ... وحين نفتقد الحرية او المناخ الحر فان افكارنا التي تظل تثقل رؤوسنا تتساقط كما يتساقط ثمر التفاح في دائرة ظل الشجرة التي أنبتته .. معاناتنا تستنبت هذه الثمار .. ولكنها ثمار لا تقطف ولا تؤكل ، وانما تتجاوز درجة النضج الى النقيض ، لتسقط ارضا .. ويوما بعد يوم تفقد الشجرة ثمارها .. ومن يدري فقد تذوب هذه الثمار لتنبت مع الربيع المقبل .. ولكن الشيء الهام اننا الان نعيش في كثير من مواقعنا العربية فترة تساقط الثمار الناضجة .

وحين نعود نراقب ذواتنا نستطيع ان نتبين ذلك على نحو واضح .. الحدث او الواقعة او الموقف يتفاعل في نفوسنا .. نفكر فيه وننفعل به ونوشك ان نجلس لنتحدث عنه ، أي لنؤديه .. ولكننا في ذات اللحظة نحس ان ضغطا ما يركب فوق اكتافنا او يعلو فوق رؤوسنا .. نحس ان شيئا يسد طريق الهواء الى آنافنا .. وقد يستحيل ذلك الى بعض الاصوات التي تداخل آذاننا ، آسرة او آمرة ، فننهض من وراء مكاتبنا ، ونلقي بالقلم جانبا ، ونلقي بالنظرة الحائرة على اوراقنا .. وقد نطويها او نتركها مفتوحة ..

اننا نفعل ذلك ، في بادىء الامر ، في مغالبة لليأس .. فاذا تكررت التجربة مرة ومرة على مدى سنة او سنوات اوشك ان ينقطع ما بيننا وبين التعبير عن مثل هذه الاحداث والوقائع .. وادركنا شيء كثير من هذا اليأس الذي كنا نغالبه .. وقد يكون اليأس الذي تفور معه القدرة على الاداء . وقد يكون اليأس الذي يحاول ان يجد التعويض في عمل آخر .

واضح اذن ان التجربة او الرؤية تكتمل في مثل هذه المواقف .. ولكن الذي يحول بينها وبين الظهور ، او يظهرها على نحو ملتو او معقد او غامض او مسرف في الغموض احيانا ، او يظهرها مبتورة او متلعثمة او خجولة ، لا يعود الى اللغة ولا الى تصور فيها (اذا اكتملت لها بقية العناصر) وانما يعود الى فقدان الظروف الاجتماعية التي تساعد على الظهور ، وتظل اللغة في ذاتها بريئة من كل اتهام .

ج ـ ولا اريد ان اتحدث عن الظروف او العوامل الثقافية التي تساعد على انضاج التجربة وعلى تنوع السبل في التعبير عنها .. لا لاني اتجنب تطويل البحث فحسب ، بل لان الظروف الثقافية مشتركة بين عوامل نضج التجربة وبين عوامل ادائها والتعبير عنها .. فالثقافة تفكير والثقافة تعبير .. هي تأمل وهي اداء .. انها تداخل نمو التجربة ثم هي تداخل اداءها .

ومعنى ذلك كله ان العلاقة بين الاداء الفني وبين اللغة لا تدخل ميدان الازمة او المشكلة حين تكتمل الظروف التي تساعد على هذا الاداء ..

والذين يظنون ان اللغة تؤلف عائقا ما في الحالات السوية للانتاج الفني انما يخادعوننا او يخادعون انفسهم .. لغتنا هي الاداة التي نملكها ، وانما نملك منها بقدر ما نتزود ، ونستخدمها بقدر ما تتيح لنا ظروفنا النفسية ، وما تبيحه لنا كذلك ظروفنا الاجتماعية .. وحين يعاني الاديب ازمة اداء فان ذلك لا يعود الى اللغة ـ ما دام قادرا على استخدامها في الظروف العادية والطبيعية التي تحتاط عملية الانتاج الادبي ـ وانما يعود الى قدرته الاولى على استخدام اللغة .

اللغة اشبه بالنسيج الذي يملك قابلية ان يمتد ليجسد ، بالكلمات والصور ، تجاربنا وطموحنا وتطلعاتنا واهواءنا . ولكن لا بد من ان تكون لنا اولا هذه التجارب ثم لا بد ان تمتلك الظروف التي تساعد على هذا التجسيد .. ثم يكون استخدام اللغة التي هي الاداة .

وليس هذا تقسيما زمنيا .. وانما هو تقريب ، فاللغة ليست شيئا ينضاف الى عملية الاداء الفني، ولكنها شيء يخلق معه ويتشيأ به .. به يصاغ وبه يقرأ وبه يسمع .. بل انه يتكون قبل ان يقرأ ويسمع ويصاغ هذه الصياغة المكتوبة .. ذلك لان اللغة ، مرة اخرى ، ليست هذه الاصوات الخارجية التي نتحدث بها او التي نحيلها الى احرف ، ولكنها هذه الاصوات او التهويمات الداخلية التي لا تسمع وانما تتكون وتخلق وتتحرك مع مراحل التجربة الادبية ، ثم تكون بعد ذلك هذه الاصوات المسموعة او الاحرف المقروءة .

ونحن لا نفكر ولا نشعر على نحو مجرد، وانما يقترن تفكيرنا وتقترن احاسيسنا بتشكلات لغوية داخلية لانعرف عنها الا انها تترجم بعد ذلك بهذه الاصوات الخارجية التي نصطلح عليها وهذه الكلمات المعجمية التي نقرؤها .

وكذلك يتبدى في دراسة عملية الاداء الفني وتأملها ان اللغة التي نعرفها ، اللغة التي غرست فينا ، هي جزء عضوي من الاداء الفني، وهي التي تحدد آماد هذا الاداء . وكل صاحب لغة راض عن لغته متفاعل منها ، آخذ منها ومعط لها .

ـ ٣ ـ

واذا كان ذلك كذلك فمن اين اذن جاء هذا الحديث المثار عن مشكلة ما بين اللغة العربية والادب المعاصر .

نستطيع ان نلمح ذلك عند فريقين من الادباء :

الادباء الذين يؤدون هذا العمل الفني او ذاك على وجه او آخر ثم يقولون ان احساسهم بالاشياء وعواطفهم نحو الحدث اضخم من الاداء الذي وقعوا عليه .. انهم بذلك يتوجهون الى اتهام اللغة بنوع من التظرف ، حيث يقول احدهم مثلا : ان الالفاظ لم تسعفني في التعبير عما احس به .. ولكنه في الواقع يكون قد عبر في حدود الظروف التي وجد فيها الامكانات التي يملكها .. وانما يتطلع الى ما وراء ذلك وكأنه يتطلع الى ظروف جديدة تمكن له ان يصوغ تجربته على نحو افضل يطمع فيه .

هذا فريق، والفريق الاخر هو الذي يملك استخدام لغتين مثلا ، ولكن ينقاد له التعبير في لغة على نحو هو ايسر واكمل مما ينقاد له في لغة اخرى .

ومثل هذا الفريق اذا تحدث عن مشكلة بين اللغة وبين الاداء الادبي فانما يتحدث عن مشكلة خاصة .. أي عن حالة ليست هي الحالة العامة التي تتوفر على انسان واحد يملك طريقا واحدة او اداة واحدة .. وانما هي حالة انسان يملك اداتين او طريقين .. والامر حينذاك لا يعدو ان يكون تفضيلا لاداة على اداة ضمن حدود القدرة الثقافية .

وكذلك يتضح ان قضية اللغة في الادب المعاصر لا يمكن ان تكون قضية اصيلة ذات موضوع كما يقولون ..

فليس هنالك ، فيما بدا لنا ، في الاصل النظري المطلق مشكلة لان الانسان انما يعبر بلغته وفي حدود لغته وتمكنه منها حين يملك لغة واحدة ، ويعبر باللغة التي يملك القدرة الاكبر في السيطرة عليها حين يملك لغتين او اكثر .

وليس هنالك ايضا في الواقع التاريخي والادبي في الحياة العربية مثل هذه المشكلة .. ولا نعرف احدا تحدث عنها .

بل انه ليس هناك ـ فيما ازعم ـ في واقع الاداب الاخرى ناس يشتكون لغتهم الا اذا كانوا يعرفون لغة اخرى هي اكثر خصبا وهم فيها اشد على التعبير اقتدارا

ومرة اخرى اجدني اتساءل: اين يقع ، اذن، الحديث عن مشكلة اللغة العربية في الادب المعاصر ؟!

ـ ٤ ـ

يبدو لي أن الموضوع يجد مكانا واحدا ضيقا يمكن ان يعيش فيه ويتحدث عنه من خلاله هو ادب المسرح وما يماثل ادب المسرح من حوار في القصة او في بعض المواقف في الاشكال الادبية الاخرى (النادرة مثلا ..)

ان المسرح، بحكم طبيعته الحوارية ومهمته التثقيفية وبحكم ما يسود الواقع اللغوي العربي ـ شأن كل واقع لغوي آخر ـ من وجود اللهجات ومن سيطرتها احيانا ، ومن وجود الامية هذا الوجود الكثيف ، ومن الاخطاء الفادحة والجهود العميقة التي يقع فيها التعليم ، المسرح

لهذا كله يلقي بهذه القضية في اذهاننا وواقعنا ، ويتسرب بها الى مؤتمراتنا وكأنها الاشكال الكبير .

وفي غير المسرح لا سبيل الى شيء من ذلك .. لاننا نلتقي في مؤتمرات الادباء العرب على لغة عربية واحدة مصفاة من لهجاتها او من رعاية هذه اللهجات التي تقود الى تفتيت اللغة وتشتيت ابنائها ..

ومهما يتحدث المتحدثون من علماء الاجتماع عن اللهجات فان الامر عندنا لا يخرج ، ولا يجب ان يخرج ، عن أن يكون — حين يكون واقعا — واقعا منحرفا ، نحن نتحرك من اجل علاجه، ولا نتحرك من اجل تأصيله وتغذيته وتأكيد وجوده .

وهل نحن في حاجة الى ان نؤكد ذلك ونؤيده بمؤيدات ونستشهد عليه بشواهد؟.. لقد اضحى الامر من الوضوح على نحو لا يحتاج معه الحديث عنه .. وانما قد يحتاج احيانا الى التذكير به ، هذا التذكير الذي يعيد الى اذهاننا جملة من الحقائق والواقعات .. منها اقتران ما بين سيادة اللهجات وانتشار الامية .. ومنها ما ادته في القليل وما يمكن ان تؤديه في الكثير وسائل الاعلام من تقريب اللهجات من الفصحى .. ومنها هذه الحقائق القومية التي تفترض مجانبة اللهجات حتى لا تكون لها هذه الصفة الاجتماعية التي يتحدث عنها علماء الاجتماع اللغوي ، لان وجود الشيء لا يقتضي اقراره .. ولان الظروف الاجتماعية ليست دائما ظروفا آسرة وانما يمكن التحايل عليها ويمكن تغييرها .. ولو كانت ظروفا آسرة لاستعصى كل حديث عن التطوير والتغيير ولاضحى لغوا من اللغو ، تؤول معه المجتمعات الى سكونية قاتلة ، وانتفت الحضارات او التقدم الحضاري .

الحالة الخاصة لادب المسرح ، والتي يجب ان تكون حالة موقتة ، هي اذن مصدر هذا الحديث ومبعثه .

ويبدو لي ان من الخطأ هنا .. ونحن جميعا نشترك في ضرورة معالجة هذا الوضع الخاص — ان نتحدث عن لغة ثالثة او عن بعض مظاهر لغة ثالثة كالتسكين او ما الى ذلك .

— ٥ —

ان اللغة الثالثة تضعنا امام خطر لغوي جديد .. احب هنا ان اتوقف عنده وان انبه اليه .. فاسمحوا لي ان اتحدث عنه .

بدعة اللغة الثالثة هذه التي يتواتر الحديث عنها تمثل وجها من وجوه الخطر الذي يهاجم العربية او يحتال عليها .

وعلى قدر ما يكون من بعد هذه اللغة الثالثة عن الاصل يكون هذا الخطر .

ثم يبلغ هذا الخطر اقصاه حين نقر نحن مبدأ اللغة الثالثة ، وحين نؤصل له فنقننه ونضع له بعض القواعد .

ولنتساءل ماذا يمكن ان تكون هذه اللغة الثالثة ؟

اهي هذه اللغة المزيج بين اللغة الاصل وبين اللهجات ؟.. وبتعبير آخر هل هي هذه اللغة المتفتحة على اللهجات المتعاطفة معها ؟

واذا كان الامر كذلك فهل ننشىء لغة ثالثة ام ننشىء لغات : ثالثة ورابعة و ... بعدد اللهجات الموجودة ؟..

ان اللغة الثالثة هي التي يعمل لها كثير من اعداء العربية ويدعون لها ويأخذون الان يضعون لها بعض المعاجم وبعض القواعد .. لا يقصدون الى شيء كما يقصدون الى تفتيت العربية ، ويتحدثون في ذلك كما يتحدثون عن تفتت اللاتينية وبناتها .. وما احسب عربيا يشارك في ذلك الا ان يكون مأخوذا بحسن النية .. وما اكثر المزالق التي تقود اليها نوايا حسنة .

والعاملون في بعض دوائر الاستشراق اليوم ، وقد عجزوا عن مقارعة الفصحى ، يحرصون حرصا دائبا على الحديث عن « **لغات عربية** » . مشتقة من هذه اللغة الثالثة .. ويوشك هذا التعبير الذي غلب عليهم ان يداخل السنتنا وعقولنا من غير تنبه الى اهدافه ولا ادراك لخوافيه .

ما من سبيل اذن الى لغة ثالثة حين تكون ارادة الحفاظ على اللغة على انها — بما كان لها من كتاب كريم — عامل بقاء الوجود العربي واستمراره وتميزه في صميم حركاتنا السياسية او الاجتماعية او الحضارية .

ان تمثل اللغة الثالثة لم يتخذ على اقلام اصحاب هذه الدعوة شكلا معينا .. ولكنه تبدى في مظاهر .. منها استخدام التسكين وتجاوز حركات الاعراب ، ومنها طي بعض القواعد ، ومنها التسامح في بعض الابنية والصيغ والتراكيب .

فلننظر في بعض ذلك نمتحنه

أ — اما (التسكين) فان الذين يدعون اليه يهملون مكانة الحركة في اللغة العربية ودلالتها وايحاءاتها ..

ان الحركات ليست هذه الاصوات المجردة ، وانما هي مقترنة ببناء الجملة ودلالتها .. وحين تكون الكلمة مرفوعة او منصوبة او مجرورة فان ذلك ليس شيئا اضافيا عليها وانما هو جزء من معناها او هو جزء كذلك من مكانها في الجملة .. انه جزء من الدلالة التعبيرية ورمز للدلالة الوظيفية .. وحين تتأمل فنيا السليقة اللغوية يستقيم عندنا ان هذه الحركات من صميم البناء او من صميم الاداء .. وكما اننا لا نستطيع ان نضع الاسم موضع الفعل او ان نستعمل الفعل مكان الحرف

ـ للذي تنهض به هذه الاقسام من دلالة وتعبر عنه من معنى خاص ـ كذلك لا نستطيع ان نهمل الحركة وان نلغي وجودها لانها في حقيقتها بعض من البناء اللغوي والاداء التعبيري .. اهماله يؤدي الى زعزعة البناء وتداعيه .

هنالك من يتلقانا بالرد فيحتج بصعوبة هذه الحركات .. ولكن ما هو نصيب هذا الادعاء من الحقيقة ؟.. وهل تنفرد العربية بذلك ؟

لا اريد هنا ان اقوم بعمل لغوي مقارن ، ولا اريد ان اتوقف عند حركات الاعراب الثلاث في العربية ونظيرها في اللغات الاخرى كالالمانية ، ولكني اتساءل : هل الامر حقا على على هذا النحو من الصعوبة وهل يتجاوز الاستخدام الصحيح لهذه الحركات بعض القواعد اليسيرة المحدودة التي نملك أن نتمكن منها بأقل الجهد واقل التنبه فنحيلها الى سليقة او يقترب ان يكون سليقة .

ب ـ اما عن التسامح في الابنية والصيغ والتراكيب فيرده ان لكل لغة خصائصها ونظمها وطبيعتها .. وهذه الطبيعة هي التي تقرر ـ في حالة سلامتها ـ ابنيتها وصيغها وتراكيبها . وليس لنا ، ايا كانت الرغبة في التجديد ، ان نتجاوز ذلك على نحو فردي أو عشوائي .. لا تصلبا ولا تزمتا ، ولكن دفعا لما قد يؤدي ذلك اليه اذا هو استمر من صعوبات تتزايد على الزمان، لاننا سنفتقد حينذاك الخط اللغوي الناظم وسنقع فريسة بلبلة عريضة.

ومع ذلك فانا احب ان اتساءل اذا كان هؤلاء الذين يتحدثون عن اللغة العربية في هذا المجال كانوا على صلة قوية بهذه اللغة ..

انهم في الغالب ، يتحدثون عن ممارسة ومعاناة وانما يبدؤون شكواهم منذ العائق الاول او ما يتوهمون انه العائق .. وتتخذ هذه الشكوى شكل الانين الكاذب المستمر الذي ليس له ما يستدعيه ، والذي يتجاوز في شدته ونبرته اضعاف ما قد يكون هناك من الم يبتعثه ..

فهناك في العربية ، في نطاق التراكيب مثلا ، هذه الحرية العريضة التي تمثلها الجوازات المختلفة .. ومن المعروف ان القاعدة في العربية لا تحجر واسعا ولا تقف عائقا .. انها تقنن ولكنها تتيح ـ من اجل تلوين التعبير الفني وتنويع الاداء الاسلوبي وتلبية لحاجات نفسية او تقبلا لمواقف خاصة ـ مجالات عريضة لتجاوز القاعدة في سبيل القاعدة نفسها .. وحين نقول مثلا انه لا يجوز الابتداء بالنكرة فانا نجد حالات كثيرة بعد ذلك تجوز هذا الابتداء ، ولكنها لا تجوزه بنوع من العبثية او الفوضى ، وانما تجوزه لان كل اداء آخر له دلالته الاضافية الاخرى التي تقتضيه او تبتعثه .

وامثلة ذلك لا تنحصر

من المؤكد ان كثيرين من الذين يستمعون الى هذا الكلام او يقرأونه سيقولون : ولكن هذه الجوازات تمثل نوعا من الفوضى ، وانها تخرج من القاعدة الى الشواذ ..

والحق ان الذين يقولون هذا هم الذين كانوا يستصعبون القواعد ويريدون الخروج عليها ..

وهكذا نجد اننا امام ادعاءات متناقضة : حين نتحدث عن القاعدة نجد الذين يشكون من توحدها وصعوبة الالتزام بها ، وحين نتحدث عن الجوازات نجد الذين يشكون من التعدد والاباحة .. وكأن الشكوى من اللغة اصبح قدرا من اقدار هذه الامة او ناس منها ، لا يفترون في ذلك ولا يكلون .. وكأن اللغة ملك فردي نتصرف فيه كيف نشاء وقت نشاء .. ناسين انها ملك جماعي للذين مضوا وللذين يعيشون الان وللذين سيعيشون بعد .

ـ ٥ ـ

والحق ان اصطناع المشكلة اللغوية في نطاق التعبير الادبي لا يجد بحال ما يسوغه .. اننا نفهم مثلا ان يتحدث اصحاب الاختصاصات العلمية الدقيقة عن فقدان المصطلح بسبب من التأخر الحضاري ... ولكن كيف نفهم ان يتحدث عنه اصحاب الفن القولي ؟.. ما الذي يدعوهم اليه اذا كانت هذه هي القضية باحتمالاتها وابعادها ؟

هل علي من حرج ان ذهبت الى ان هؤلاء انما يصطنعون هذا كله اصطناعا ـ او يؤخذون به ـ في نطاق حملة كبيرة اوشك انا اقول انها جزء من الحملات التي لم تهدأ منذ كانت الخصومة بين الشرق العربي المسلم وبين قوى الغرب التي لا تلتقي على شيء ، مدى تاريخها كله ، كما تلتقي على خصومتنا ، غزوا كان ذلك او تفتيتا ، استلابا للاموال والثروات او استراقا للعقول والافئدة ، تشكيكا في الصراط المستقيم او خروجا عن الصراط المستقيم .

ان لم يكن ذلك كذلك فكيف نفهم هذه الحملات اللغوية المتصلة ؟ . كيف نفهم هذه الاساليب التي لا تتناهى في تحطيم العربية . في حياتنا الدينية مرة وفي حياتنا القومية مرة وفي حياتنا الوطنية . في حياتنا العقلية وفي حياتنا الشعورية على السواء . في نطاق العلم ثم في نطاق الادب . لا تكاد الحملة تنتهي حتى نجد اننا قبالة حملة اخرى .. واقل ما يكون من ذلك ـ بعد فشل الحملات ـ اضاعة الجهد ، وتبديد الوقت ، وتوليد الفرق والخصومات ، والاشتغال بدفع الاذى عن اقامة البناء ، وتعويق حركة السير بكل اداة في كل سبيل .

★ ★

ليس هنالك اذن في الواقع الصحيح شيء اسمه مشكلة اللغة العربية في الادب المعاصر .. هنالك مشكلة

اللغة العربية عند الذين يتصدون لانشاء هذا الادب دون ان يكون عندهم من لغتهم ما يتكافأ مع حاجة هذا الادب.

ان الامر يتصل بهؤلاء الذين يريدون ان ينشئوا ادبا من غيراداة.. قد تكون عندهم مشاعرهم ورؤاهم وتجاربهم، ولكنهم لا يمتلكون الاداة لابراز ذلك وايصاله .. والاداة هي اللغة ، واللغة هي التي تحيل ذلك كله الى ادب .. وعلى نحو ما قدمت، فان هذا الادب حين يكون في مستوى الابداع يثري هذه اللغة ويضم الى زادها زادا والى ذخائرها ذخيرة .. كما ان اللغة هي التي تهب هذا الادب وجوده المشترك وتحيله من صوت داخلي غير مهموس ، الى نبرات منظومة مسموعة .

من المؤكد ان الاشكالية هنا لا تتصل باللغة وانما تتصل بأصحابها .. وقد يكون بعض ذلك في طرائق التدريس ولكن طرائق التدريس بلغت من السهولة والتبسيط حدا يقطع الطريق على الذين يحتمون بالصعوبات .. ومثل هؤلاء مثل الذين يقفون وراء اصابعهم ويظنون انهم قد اختفوا عن العيان .. انهم لا يريدون أي جهد في النطاق اللغوي ، وقد يبيحون كل جهد في كل مادةالا اللغة ينفون عنهاكل جهد في سبيلها ويريدون ان تتنزل عليهم تنزلا .. ويطرحون هذه المقارنات العجيبة مع اللغات الاخرى ، ويصطنعون بعض الصيغ يشيعونها كأن يقولوا : اننا نقرأ لنفهم ولكننا في العربية نفهم لنقرأ.. وهي صيغ قد كدس فيها الباطل تكديسا ثم موه بطبقة من حق مزيف .

اننا ، واللغة العربية ، مع بناء كامل .. بناء فيه من المنطقية والوضوح اكثر ما يمكن ان يتوفر للغة من المنطقية والوضوح .. اذ لا يخلو نظام لغوي من مجانبة المنطق نتيجة لتراكمات مغرقة في القدم ..

وهذا البناء جملة من الاصوات والصيغ والتراكيب والدلالات والقواعد .. بعضها ثابتة مثل ثبات الاسس والاعمدة والحدود الكبرى ، وبعضها ــ في مجالات التعبير بخاصة ــ مرن الى ابعد حدود المرونة ، ليست القاعدة فيه خيطا من صلب متكسر ولكنها خيط من حرير دمث ، ينثني ويتلوى ويطاوع القادر عليه في كل اتجاه .

ولقد استطاعت هذه اللغة بذلك ، على تباعد الازمنة والامكنةوتكاثر الشعوب والاقوام واختلاف النماذج البشرية التي لا تتناهي ان تعبر عن ادق المشاعر وان تعالج اصعب القضايا ، وان تتسع لمشاكل الفكر الوجود والفكر من غير نهاية ولا حدود .. وهي قادرة على ان تتابع ذلك وان تنتج حين نخلص لها الى حد التعبد، وحين تجد من يحسن استخدامها ، اروع الاشكال والصور والتعابير في كل ما يتصل بالانفس والافاق .

انها، مرة ثانية ليست مشكلة اللغة، وانما هي مشكلة الذين يستخدمونها .. الامر امر قصورهم لا قصورها ، امر تخاذلهم وليس امر تهافتها .. ايمانهم هم بأنفسهم يقود الى الايمان بها .

وقد آن لنا ان نعرف كيف نعفي انفسنا من تلقف المشاكل التي تطرح علينا احيانا من خارج الدائرة ، ثم يقف من يقف يتفرج علينا كيف نحاول حلها وكيف نتفرق في هذه الحلول ، وكيف تتكدس في طريقنا عقبات .. وقديما استقر في وجداننا هذه الحقيقة التي عبر عنها المثل العربي : انك لا تجني من الشوك العنب .. فمتى نكف عن نشدان حبة العنب بين اكوام الشوك ، ومن بين ايدينا ومن خلفنا كل هذه الكروم الخضراء .

شكري فيصل
سوريا